الفصل الأول

﴿ صدق محمد (صلى الله عليه وسلم) ﴾

محمد والاغاني المعروفة باغاني الاشارات ـ محمد والتاريخ ـ اصل
الاعتقاد ـ الوحي بالقرآن ـ ليس محمد مبتدعا ـ هل
كان على الدوام صديقا ـ وفاته

كنت كلما بحثت فى الديانات مع صاحب لى من طلبة العلم فى تلمسان وأراد الهرب من الجدال يجيبنى هم يقولون ان لله ولداً وان محمداً لمن الساحرين اجابة مملوءة بالاحتقار كما يجب المعتقد وثنياً يريد أن يشفق عليه وذلك مع مبالغته فى احترامى وحسن الصلات بيننا وكان يرى ان التثليث خرافة فادحة كسحر محمد وان المسيحيين الذين اخترعوا البدعتين قوم لاينبغى الجدال معهم ولست أدرى ماالذى يقوله المسلمون لو علموا أقاصيص القرون الوسطى وفهموا ما كان يأتى فى أغانى القوال من المسيحيين فجميع أغانينا حتى التى ظهرت قبل القرن الثانى عشر صادرة عن فكر واحد كان السبب فى الحروب الصليبية وكلها محشوة بالحقد على المسلمين للجهل الكلى بدياناتهم وقد نتج عن تلك الاناشيد تثبيت هاتيك القصص فى العقول ضد ذلك الدين ورسوخ تلك الاغلاط فى الاذهان ولا يزال بعضها راسخاً الى هذه الايام فكل ناشد كان يعد المسلمين مشركين غير مؤمنين وعبدة اوثان مارقين وقد

جعلوا لهم ثلاثة آلهة هم على ترتيب درجاتهم ماهوم ويقال ماهوم وبافوميد وماهوميد وهو محمد (صلى الله عليه وسلم) ثم (أبلّين) ثم (ترفاجان) وذهبوا الى ان محمداً وضع دينه بادعائه الالوهية ومن المستغربات قولهم ان محمداً الذى هو عدو الاصنام ومبيد الاوثان كان يدعو الناس لعبادته فى صورة وثن من ذهب كما كان يعتقد (الكرلوفنجيون) وان المسلمين لما غلبهم الافرنج وصدوهم الى اسوار سرقسطه عادوا الى اصنامهم فحطموها كما طنطن به احد منشدى ذلك العصر حيث قال (وكان ابلين الههم فى مغارة هناك فتراموا عليه واوسعوه شتما وسبا وصلبوه من يديه فى احد العمدان وجعلوا يدوسونه باقدامهم ويوجعونه ضربا بالعصى حتى هشموه واما (ماهوم) فقد رموه فى حفرة وتركوا الكلاب والخنازير تنهشه وتمشى عليه وتلك اهانة لم تصب الهاً قبله) ويظهر ان المسلمين لم يلبثوا ان تابوا من ذنبهم واستغفروا آلهتهم وأصلحوا ما أتلفوه منها ولذلك أمر الامبراطور كارلوس بابادتها لما دخل سرقسطه كما جاء فى قول ذلك الشاعر (وقد أمر الامبراطور الفرنسا ويين فطافوا جميع انحاء المدينة ودخلوا المساجد والجوامع وبأيديهم مطارق من حديد فكسروا بها ماهوميد وجميع الاوثان والاصنام) وكذلك يقول (ريشار) فى أناشيده وهى جميلة لاشىء من الخراف فيها الا انها زور وبهتان حيث يطلب من الله أن يوقع الفشل العميم بين (أولئك الذين يعبدون بصورة ماهوم) ثم جعل يحرض الاشراف على الحرب المقدسة وينصحهم أن ينكسوا أصنام المسلمين) قوموا وتكسوا صنم ماهوميد وترفاجان وصبوهم على النار وقدموهم الى ربكم) وذهبوا الى

ان صورة ماهوم كانت تصنع من أنفس الاحجار والمعادن باحكم صنع وأدق اتقان ومن قرأ وصفه فى اناشيد (رولان) كاد يحلف ان ذلك الشاعر انما يصف عن خبر وعيان يقول وكانت كلها من الذهب والفضة لو شاهدتها لأيقنت بانه لايمكن للعقل ان يتصور اجمل منهاعظيمةالشكل لطيفة الصنع تلوح على وجهها سمات الشهامة . كان (ماهوم) من ذهب وفضة يأخذ بريقها بالابصار قد وضع فوق فيل على جلسة من أجمل المصنوعات خاوياً من جوفه فيرى الضوء من خلاله مرصعاً بنفائس الاحجار المضيئة يرى الناظر باطنه من الظاهر وهو صنع عز عن المثال والنظير)ولما كانت الآلهة تنزل الوحى وقت الشدائد وانهزم المسلمون فى احدى غزواتهم بعث قائدهم الى مكة يطلب ربه قال الراوى فجاء الاله محمد ـــ فى موكب عظيم يضرب بالطبل والمزامير ضرباً يسمع له دوى قاصف وبعضهم يغنى بالمزمار والآخر بصفارة من الفضة والكل حولهم يرقصون ويغنون بأعلى أصواتهم واقبلوا به فرحين حيث المجلس معقود والخليفة الدينى فى انتظاره فلما رآه قام يعبده بخضوع وخشوع ثم أخذ (ريشار) بعد ذلك يقص كيفية مناجاة أولئك الوثنيين لذلك الصنم الذى وصفه بالتجويف وان لاشىء فى باطنه الا ويرى من الخارج فقال (وقد وضعوا فى جوفه عفريتاً استحضره السحرة وصار ينط ويعربد ثم أخذ يكلم المسلمين وهم يسمعون) ولقد زاد بغضهم لذلك الصنم حتى جعلوه علامة على الدين الاسلامى كما جعلوا الصليب علامة للدين المسيحى فروى (بودوان) فى نشيده على الكونتسه

(يونتيو) لما أرادت ان تعتنق لاسلام امام صلاح الدين انها قالت (اريد أن أعبد محمداً فائتونى به فلما صار بين يديها خرت ساجدة اليه) ويأخذ القارىء من نشيد آخر يظهر انه وضع تتمة لاناشيد (بودوان) وجود الهين للمسلمين غير الذين سبق ذكرهم وهما (باراتون) و (جوبين) الاثن الثلاثة الاولين هم الرؤساء ولما رد أحد قواد المسيحيين جيش المسلمين الذى خرج من مكة أخذ الشاعر يصف اضطراب المسلمين كما يأتى (وقد جعل الوثنيون يصيحون ويصرخون ويموجون بينهم ويهرجون وينادون باعلى اصواتهم يا (ترفاجان) يا (ماهوم) ومع ذلك يوجد نشيد من اناشيد القرون الوسطى لايرى فيه القارىء رمزاً الى محمد بالصنم وهو للقسيس (اسكندردويون) الفه سنة ١٢٥٨ ميلادية اخذاً عن مسلم تنصر من ذوى الاعتبار وعد الناس تلك القصة تاريخا صحيحاً عن ذلك النبي وقد جاء فيها (انه من المعلوم ان محمداً كان عالما بطرق المكر والخيانة والخداع) ثم شبهه باحد الامراء المحاط باتباعه ينشر دينه على ابسط حال حتى اعتقده الناس أكثر مما اعتقدوا حبر رومة

ولقد أطلنا القول فى تلك الاضاليل لان تاريخ (اسكندر) المذكور لم يزلها ولانها تركت أثراً فى الاذهان وصل الى اهل هذه الايام وتشبعت به افكارهم فى النبي وكتابه

ولو سأل سائل هل كان اولئك المنشدون يعتقدون صحة مايقولون لاجبناه جواب اهل نورمندة لا ونعم اذ من المحقق ان الاختلاط بين المسيحيين والمسلمين سهل للمنشدين معرفة الدين المحمدى على حقيقته

ولكنهم ما كانوا يقصدون الحقائق التاريخية في اناشيدهم بل حفظ روح البغضاء في نفوس قومهم فاحتاجوا في ذلك الى وصف المسلمين ونبيهم ودينهم بالاوصاف التي تؤثر في نفوس المنشود لهم على حسب معارفهم واميالهم واذا انتقلنا من شعراء القرون الوسطى الى من جاء بعدهم من المؤرخين والمتكلمين (الباحثين في علم التوحيد) الذين يظهر على كتبهم في ذلك الزمن انهم ميالون الى الاعتدال وجدنا مؤلفاتهم محشوة بتلك الاقاصيص الخرافية مملوءة بالطعن والشتائم في نبي المسلمين وكان المصلحون (هم البروتستان ايام دعوتهم لاصلاح الدين المسيحي) أشد تعصباً ضده من غيرهم فقد اعتنى (بيبليياندر) بتشبيه محمد بالشيطان وعاملوا كتابه وشرعه كما عاملوه ولسنا نقيم برهاناً على ما نقول غير توجيه نظر القارىء الى مطالعة ما جاء في مقدمة كتاب (ريلان) الذي ألفه سنة ١٧٢١ تحت عنوان (ماهو السبب في ان الناس عامة لا يعرفون من الديانة المحمدية الا شيئاً يسيراً) حيث يقول (لو اراد الباحثون ان يصموا مذهبا او طريقه بوصمة الخزي والعار نسبوها الى محمد فقالوا مذهب محمدي او طريقة محمدية وهكذا) وألف القس (دون مارتينو الفرنسو قيقالدو) كتاباً سماه سراج الكنيسة المقدسة الذهبي جاء فيه (ان كتاب محمد لا تلزم قراءته بل يجب ان يسخر به وان يحتقر ويرمى في النار أنى وجد ولا يليق ان يحفظه الناس لانه عمل بهيمي) وبعضهم كان لا يقول بحرقه ولكنه يرى (من العبث ان يجهد الانسان نفسه ويزيد ايلامها بحفظ هزيئات وأمور تافهة منشأها خيالات شخص اختل عقله واضطربت قواه)

وأما المسلمون فمن اسمائهم فى تلك الكتب البلدة والكسالى والحمير والحمير الوحشية والمقوتون الذين يملأون المنزل بالنساء فى الليل ويطلقونهن فى النهار ولو اردت الاطلاع على جعبة الشتائم والسباب فعليك بكتاب الفه احد اليسوعيين وهو (پروشار) وسماه مرشد السياحه وقدمه الى الامير (فيليب روقالو) سنة ١٣٣٢ وذكر فيه الاسباب التى تحمله على الدعوى الى حرب صليبية فقال (من ذا الذى لا يزرف عبرات الدمع عند ما يعلم أى الرجال هم قابضون اليوم على تلك البقاع التى هي ميراثنا أولئك قوم لا رب لهم ولا دين يهديهم ولا شرع يرجعون اليه ولا عهد ولا حنان أولئك قوم اخساء ادنياء وهم اعداء لكل حقيقة فى الوجود وكل صفاء وكل خير وكل عدل أولئك هم أعداء الصليب الكافرون بالله المضطهدون للمسيحيين المفرطون فى نسائهم الفاسقون بالاطفال الظالمون لعجم الحيوانات المخالفون لطبائع البشر القتالون للفضائل المميتون للاخلاق الغارقون فى القبائح والخطايا أولئك هم أولياء الشيطان وانصار الدنايا ذوو حقد وبغض ذوو افكار سافلة واعمال سخيفة وعيشة دنيئة وأقوال بذيئة وعشرة سوء معدية لاتنصرف ارادتهم ولا تتجه هممهم الا الى اللذائذ البهيمية والمعيشة الهمجية أولئك هم القوم الذين ابعدونا عن هاتيك البقاع وأذوونا فى هذه البقعة الصغيرة التى نحن فيها مستهزئين بنا وساخرين بديننا أولئك هم الذين خربوا بيت الله وملكوا المدينة المقدسة التى هى مهبط شرعنا ولوثوا اماكنها المقدسة المطهرة)

ولم يزل هذا الروح سائداً عند المسيحيين حتى ان المستشرق

(بريدو) الانكليزى الف سنة ١٧٣٣ كتاباً فى سيرة النبي عنوانه (حياة ذى البدع محمد) وترجمه بعضهم الى لغتنا وجعل له مقدمة بين فيها مقصد المؤلف فقال (ان غرض واضع هذا الكتاب هو خدمة المقصد المسيحى الحكيم بذكر حياة ذلك الرجل الشرير محمد) أولئك كتاب ما قصدوا التاريخ ولكنهم ارادوا خدمة المقصد المسيحى الحكيم كما يقولون وكان سلاحهم الوحيد فى تأييد سواقط حججهم ان يشبعوا خصمهم سباً وشتما وان يحرفوا فى النقل مهما استطاعوا واراد (داماسين) ان يخالفهم فى التأليف لكونه تربى فى دمشق الشام وكان مقربا عند الخلفاء فجعل يرد مذهب الاسلام من غير تعصب لذلك عده بدعة فى الديانة المسيحية تقرب من بدعة (اريوس) ومع ذلك فلم تؤثر عبارته فى رأى الغربيين بل ظلوا يعتقدون الخرافات فى النبي وقرآنه وكان رؤساؤهم الروحانيون يجتهدون دائماً فى تأييدها وتمكينها من الاذهان وهى سياسة جعلت الناس عندنا يهزأون بالدين الاسلامى واغنت الباباوات عن حربه حربا صحيحاً فقد كانت الكنيسة اللاتينية فى القرن الثامن مشتغلة بامور أخرى لان الكنيسة الشرقية كانت واقعة بين عاملين مضرين هما احزاب النفس الواحدة فى جسدين واحزاب النفس فى جسم واحد

ولم يبدأ فى البحث عن الاسلام بغير تعصب ولا تشيع الا فى زمننا هذا ففى القرن التاسع عشر اخذ الباحثون ينظرون الى المسئلة نظر الناقد البصير وكان من وراء ذلك ان افترق الناس فى القرآن الى معجب به وطاعن فيه ومع ذلك لا نزال نرى في لسان هذا القسم الا خير ماتشم منه رائحة

تأثرهم بالافكار الماضية قال موسيو (دروختى) فى سياحته فى بلاد العرب التى نشرها سنة ١٨٧٨ عن النبي (انه عربى خائن دنى) وقد نسى ان هذه الالفاظ التى يشمئز منها السامع لم تعد تصلح اليوم حجة على صحة الدعوى

وأول مادار البحث فيه مسئلة صدق النبي فى رسالته وقد قلنا ان ذلك متفق عليه بين المستشرقين والمتكلمين على التقريب، ومعلوم انه لا ارتباط بين هذه المسئلة وبين كون القرآن كتابا منزلا ولسنا نحتاج فى اثبات صدق النبي الى اكثر من اثبات انه كان مقتنعاً بصحة رسالته وحقيقة نبوته اما الغرض من تلك الرسالة فى الاصل فهو اقامة اله واحد مقام عبادة الاوثان التى كانت عليها قبيلته مدة ظهوره وبيان ذلك ان اسماعيل لما حنقت عليه ساره وطرد من عائلة ابيه توجه الى بلاد العرب ونقل اليها ديانة أبيه ابراهيم الا انه لم يبق بين العرب من تلك الديانة سوى شيء قليل يشبه الخيال اذ لم يكن عندهم من يذكرهم على الدوام بان رب ابراهيم هو رب عزيز لا يقبل له شريكا كما حصل ذلك لبنى اسرائيل ولا يزال هذا الاعتقاد يزول شيئاً فشيئاً وتحل محله عبادة الآلهة التى كانت معروفة فى أمم أخرى حتى تنوسى دين اسماعيل تماماً ثم دخلت اليهودية فى بعض القبائل المجاورة لبلاد الشام ولكن الديانة المسيحية لم تعلق فى تلك البقاع حتى ان (تيث) قس بصرى اعترف فى القرن الرابع بان معيشة العرب الرحالة النقالة تمنع من انتشار تلك الديانة فى بحيث جزيرة العرب.

تلك هى حالة الدين ببلاد العرب الى قرن السابع وقد بحث فيها الكتاب كل على حسب اميله وكما اعتقد لذلك تناقضت اقوالهم

فى اعتبارها والحكم على اهلها فقال موسيو (رونان) لا يوجد فى تاريخ التمدن كله صورة اجمل من حالة بلاد العرب قبل الاسلام ومن رأيه ان القبائل فى تلك البقاع كانت تدين باليهوديه أو بالدين المسيحى وكانت مشتغلة بحركة دينية عظيمة وقال موسيو (بارتيلى سانت هيلير) لوصح أن أولئك الاقوام كانوا على جانب عظيم من التمدن كما يدعون لما احتاجوا الى تلك التعاليم الادبية التى تقشعر ابدننا لسماعها (حرمت عليكم امهاتكم وبناتكم واخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الاخ وبنات الاخت)ومن رأى هذا المؤلف ان العرب كانت أمة متبربرة فى حالة من التوحش تقرب من حالة العبرانيين ايام بعث فيهم موسى بمثل ماتقدم من التحاريم. ولست أريد الخوض فى ترجيح أحد الرأيين ولكنى أرى ان التوسط فى الامر اقرب الى الصواب وان امة العرب قبل النبي كانت وثنية على وجه العموم وكان مذهب توحيد الاله يخطر فى الاذهان رويداً رويدا وكان المشخصون لهذا الاعتقاد فريق يقال لهم الاحناف بقوا على مذهب ابراهيم(عليه السلام) واما المسيحيون فكانوا فرقا كثيرة كلها تعتقد بمذهب التكثير (تعدد الالهة) وتلقى محمد مذهب اولئك الاحناف بحالة سطحية لكن لما كانت نفس ذلك النبي مفطورة على التشبع بالدين تكيف هذا المذهب فى وجدانه حتى صار اعتقاداً لم تصل اليه نفس قبله الا قليلا وهو ذلك الاعتقاد المتين الذى احدث انقلابا كليا فى النوع البشرى ومن الخطأ ان نبحث عن هذا المبدأ العميم فيضه فى غير طريقة الاحناف لان محمدا ما كان يقرأ ولا يكتب بل كان كما وصف نفسه مرارا نبياً أميا وهو وصف لم يعارضه فيه احد من

معاصريه ولاشك انه يستحيل على رجل فى الشرق ان يتلقى العلم بحيث لا يعلمه الناس لان حياة الشرقيين كلها ظاهرة للعيان على ان القراءة والكتابة كانت معدومة فى ذلك الحين من تلك الاقطار ولم يكن بمكة قارئ أو كاتب سوى رجل واحد ذكره (جارسين دى تاسى) فى كتابه الذى طبعه سنة ١٨٧٤ كذلك من الخطأ مع معرفة اخلاق الشرقيين ان يستدل على معرفة النبي للقراءة والكتابة باختيار (السيدة) خديجة (رضى الله عنها) اياه لمتاجرها في الشام ولم تكن لتعهد اليه اعمالها ان كان جاهلا غير متعلم فانا نشاهد بين تجار كل قوم غير العرب وكلاء لا يقرأون ولا يكتبون وهم فى الغالب أكثرهم امانة وصدقا

ثبت اذن مما تقدم ان محمداً (صلى الله عليه وسلم) لم يقرأ كتابا مقدسا ولم يسترشد فى دينه بمذهب متقدم عليه خلافا لما ذهب اليه (اسكندر دوبون) حيث (يقول انه كان يعرف دين اليسوع قراءة وكتابه) نعم ان البحث عن معرفة المصادر التى عساه يكون تلقى عنها بالمشافهة ديانة المسيح أو الديانة اليهودية أو ديانة عباد الكواكب قد يكون مفيدا لمعرفة الموافقات التى جاءت بين القرآن وبين التوراة الا انه بحث ثانوى اذ لو فرض وكان القرآن قد نقل بعضا من الكتب المقدسة الاخرى لبقى الامر مشكلا كما كان عليه فى معرفة حقيقة ما اختلج بروحه الدينى وكيف وجد فيها ذلك الاعتقاد الثابت بوحدانية الله حتى استولى عليه روحا وجسما ولقد نعلم انه مر بمتاعب كثيرة وقاسى آلاما نفسية كبرى قبل ان يخبر برسالته فقد خلقه الله ذا نفس تمحصت للدين ومن أجل ذلك احتاج الى العزلة عن الناس لكى يهرب من عبادة

الاوثان ومذهب تعدد الالهة الذى ابتدعه المسيحيون وكان بغضهما متمكناً من قلبه وكان وجود هذين المذهبين اشبه بابرة فى جسمه (صلى الله عليه وسلم) ولكى ينفرد بما نزل فيه من الفكر العظيم وهو وحدانية الله تعالى اعتكف فى جبل حرى وارخى العنان لفكره يجول فى بحار التأملات عابداً متهجداً ومضت عليه بهذه الحالة ليال من ليالى هاتيك البقاع التى تملأ النفس انشراحا حتى جاء عنها فى لسان العامة ان الملائكة تسأل ربها لو أذن لهم فيهبطوا من السماء لقضاء ليلهم على الارض اعجاباً بجمال الليل فيها وشوقا الى صفاته وجلاله

ولعمرى فبم كان يفكر ذلك الرجل الذى بلغ الاربعين وهو فى ريعان الذكاء ومن اولئك الشرقيين الذين امتازوا فى العقل بحدة التخيل وقوة الادراك لابوضع المقدمات وتعليق النتائج عليها ما كان الا ان يقول مراراً ويعيد تكراراً هذه الكلمات (الله احد الله أحد) كلمات رددها المسلمون أجمعون من بعده وغاب عنا معشر المسيحيين مغزاها لبعدنا عن فكرة التوحيد ولم يزل عقله مشتغلا حتى ظهر هذا الفكر فى كلامه على صور مختلفة جاءت فى القرآن (لم يلد ولم يولد ولم يكن له شريك ولم يكن له كفؤاً احد) وكانت مترادفات اللغة العربية تساعده بمعانيها الرقيقة على ترداد ذلك الفكر السامى الذى دلّ عليه ومن تلك الافكار وتلك العبادة تولدت كلمة الاسلام (لا إله الا الله)

ذلك هو اصل الاعتقاد بالله فرد ورب صمد منزه عن النقائص يكاد العقل يتصوّره وهو اعتقاد قوى يؤمن به المسلمون على الدوام ويمتازون به

على غيرهم من القبائل والشعوب اولئك حقاً هم المؤمنون كما يسمون انفسهم بالسنتهم . ولقد يستحيل ان يكون هذا الاعتقاد وصل الى النبي (صلى الله عليه وسلم) من مطالعته التوراة والانجيل اذ لو قرأ تلك الكتب لردّها لاحتوائها على مذهب التثليث وهو مناقض لفطرته مخالف لوجدانه منذ خلقته فظهور هذا الاعتقاد بواسطته دفعة واحدة هو اعظم مظهر في حياته وهو بذاته أكبر دليل على صدقه في رسالته وأمانته فى نبوته

وأما مسئلة الوحي بالقرآن فهي اكثر اشكالا واكبر تعقيداً لان الباحثين لم يهتدوا الى حلها حلا مرضياً والعقل يحار كيف يتأتى ان تصدر تلك الآيات عن رجل أمى وقد اعترف الشرق قاطبة بانها آيات يعجز فكر بنى الانسان عن الاتيان بمثلها لفظا ومعنى آيات لما سمعها عقبة ابن ربيعة حار فى جمالها وكفى رفيع عبارتها لاقناع عمر بن الخطاب فآمن برب قائلها وفاضت اعين نجاشى الحبشة بالدموع لما تلى عليه جعفر بن ابى طالب سورة زكريا وماجاء فى ولادة يحيي وصاح القسس ان هذا الكلام وارد من موارد كلام عيسى قال ناقل هذه الرواية (كوزان دى بيرسوفال) فلما كان اليوم الثانى طلب النجاشى جعفر واشار اليه بتلاوة مافى القرآن عن المسيح ففعل واستغرب الملك لما سمع ان المسيح عبد الله ورسوله وروح منه نزل فى أمه مريم ثم تناول قضيباً دقيقاً كان أمامه وقال لجعفر ان الفرق بين ماسمعناه منك الآن عن عيسى وبين ماتقوله ديانتنا عنه لا يزيد عن سمك هذا القضيب وقد قوى ذلك القضيب فمنع الحبشة من الاسلام وجعلها مسيحية الى الآن) لكن نحن معشر الغربيين لا يسعنا ان نفقه معانى القرآن كما

هى لمخالفته لافكارنا ومغايرته لما ربيت عليه الامم عندنا غير انه لاينبغى أن يكون ذلك سبباً فى معارضة تأثيره فى عقول العرب ولقد أصاب (جان جاك روسيو) حيث يقول (من الناس من يتعلم قليلا من العربية ثم يقرأ القرآن ويضحك منه ولو انه سمع محمداً (صلى الله عليه وسلم) يمليه على الناس بتلك اللغة الفصحى الرقيقة وصوته المشبع المقنع الذى يطرب الاذن ويؤثر فى القلوب والتفت الى أنه كلما بدت أحكامه أيدها بقوة البيان وما أوتيه من بلاغة اللسان لخر ساجداً على الارض وناداه أيها النبي رسول الله خذ بيدنا الى مواقف الشرف والفخار أو مواقع التهلكة والاخطار فنحن من أجلك نود الموت أو الانتصار قال (بولا نفيلير) انى لاعترف بانه من الصعب ان يظن الانسان ولا يتحير فى أمره ان قوة الفصاحة الانسانية تؤثر ذلك التأثير خصوصاً وانها تصدر عالية بغير ضعف أبداً وتتجدد رفيعة معجزة اذ تقصر دون تمثيلها رجال الارض وملائكة السماء وقد أشار المؤلف فى كتابه الى الآية الآتية

(أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين — فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا ان ما أنزل بعلم الله وان لا اله الا هو)

وكيف يعقل ان النبي ألف هذا الكتاب باللغة الفصحى مع انها فى الازمان الوسطى كاللغة اللاتينية ما كان يعقلها الا القوم العالمون ولقد أعجب من موسيو (رينارد دوزى) فى كتابه تاريخ الاسلام حيث يقول فى الصحيفة العشرين بعد المائه (ان فى القرآن أغلاطاً نحوية كثيرة وان تلك

الاغلاط جعلت فيما بعد من جملة قواعد النحو أومستثنيات من قواعده)
ولعمرى أى مصدر اعتمد عليه ذلك المؤلف فيما ادعى مع اننا لم نعهد كتباً
نحوية قبل الاسلام ولوصح وجود شيء منها فلابد انه كان عزيزاً نادراً وقد
شاهدنا ان اناساً وما كان أكثرهم أميين قاموا فى أمة العرب وادعوا النبوة منهم
مسيلمة الذى زعم انه قرين محمد أتى بسور سخر العرب منها ولو لم يكن فى القرآن
غير بهاء معانيه وجمال مبانيه لكفى بذلك أن يستولى على الافكار ويأخذ
بمجامع القلوب . أتى محمد بالقرآن دليلا على صدق رسالته وهو لا يزال
الى يومنا هذا سرا من الاسرار التى تعذر فك طلاسمها وان يسبر غور هذا
السر المكنون الا من يصدق بانه منزل من الله اللهم الا اذا اعتمدنا على
قول مجدى الديانة المسيحية مما كنا نرتاح اليه ايام شبيبتنا وهو يرجع الى
ان القرآن تأليف فاتح اراد تأييد سلطته فجمع من كتب اليهود
والمسيحيين قانونا اودعه بعض قواعد الادب والدين واضاف اليه قصص
الوقائع العظيمة لتأييد رسالته) وعلى كل حال أى سواء توصلنا الى معرفة حقيقة
القرآن أم لا فلا ينكر أحد ان مظهر محمد كان مظهر نبوة بالفعل بقطع النظر عن
صدق تلك النبوة وعدم صدقها لان النبوة من حيث هى عبارة عن قيام رجل
يملى على الناس أمر ربه ويعتقد حقا ان مايقوله آت من عند الله وهو تعريف
اعلم ان المسيحيين لا يقبلونه سواء كانوا من المتكلمين أو الحكماء الباحثين
الا انى ما اردت به التوفيق بينهما بل قصدت به تمهيداً للايضاحات التى
اريد ان اقدمها للقراء فى عرض رسالتى

وعلى ماتقدم أقول ان لظهور النبوة سببين مختلفين فاما ان تكون

صادرة عن وحي سماوي أو عن اتقاد في الذهن واشتداد في حركة النفس الباطنية والمتأثر بأحد هذين السببين ينفعل به قهرا غير مختار فهو صادق على الحالين وتكون النبوة حقيقية أو كاذبة بحسب المؤثر فيها فان كان الهيا فالاول والا فالثاني ولو رجعنا الى ماوضحه الحكماء عن النبوة ولم يقبله المتكلمون من المسيحيين لامكننا الوقوف على حالة مشيد دعائم الاسلام وجزمنا بانه لم يكن من المبتدعين فمحمد كما قال (أبو الد) عن انبياء بني اسرائيل اعتقد ان روحا من الله استولت على لبه فلم يعد يشعر بان له فكراً خاصا بل انه أوتيه من عند ربه واختفت في نظره انانيته ولم يعد يسمع غير صوت ذات فوق ذاته ومن) الصعب ان تقف على حقيقة سماعه لصوت جبريل (عليه السلام) هل كان ذلك في الحلم أو غيبوبة في عالم التصورات الالهية على ان معرفة هذه الحقيقة لاتغير موضوع المسئلة لان الصدق حاصل في كل حال

كذلك لو قال قائل ان القرآن ليس كلام الله بل كلام محمد (صلى الله عليه وسلم) فلابد لنا على الحالين من الاعتراف بان تلك الآيات البينات لاتصدر عن مبتدع ابداً خلافا لرأي من ذهب الى تكذيب نبوته ولعل رأيهم جاء من ضيق اللغة التي تلجئنا الى ان نرمي بالكذب نبياً هو في الحقيقة شخص ملئ امانة وصدقا .

ولقد نعلم ان الصوت الذي كان يسمعه نبي المسلمين شبيه بالصوت الذي ايقظ ابوانس من قبله فقال له (يا ايها المدثر قم فانذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر) فلما سمع ذلك تلكأ وتباطأ واستعصى على هذا النداء فضعفت صحته واستولى عليه الهلع كرجل يخاف ان يذهب لبه ثم انتهى

به الحال الى ان صدع بامر ربه وجعل يبشر الناس وحصل على شيء من الراحة وان لم يتلها بتمامها لانه كان كثير التألم كما يؤخذ ذلك من سورة هود والقارعة والحاقة

ومن ذلك الحين أخذت شفتاه تنطلق بالفاظ بعضها أشد قوة وابعد مرمى من بعض والافكار تتدفق من فمه على الدوام الى ان يقف لسانه ولا يطيعه الصوت ولا يجد من الالفاظ ما يعبر به عن فكر قد ارتفع عن مدارك الانسان وسما عن ان يترجمه قلم أو لسان وكانت تلك الانفعالات تظهر على وجهه بادية فظن بعضهم ان به جنة وهو رأى باطل لانه بدأ رسالته بعد الاربعين ولم يشاهد عليه قبل ذلك أي اعتلال فى الجسم أو اضطراب فى القوة المادية وليس من الناس من عرف الناس جميع احواله في حياته كلها مثل (النبي صلعم) فلقد وصل المحدثون عنه الى انهم كانوا يعدون الشعر الابيض فى لحيته ولو انه كان مريضاً لما أخفى مرضه لان المرض فى مثل تلك الاحوال يعتبر امرا سماويا عند الشرقيين وليست حالة محمد (صلعم) فى انفعالاته وتأثراته بحالة ذى جنة بل كانت مثل التى قال نبي بنى اسرائيل فى وصفها (لقد شعرت بان قلبي انكسر بين اضلعي وارتعشت منى العظام وصرت كالنشوان لما قام بى من الشعور عند سماع صوت الله واقواله المقدسة)

اذن ليس محمد من المبتدعين ولا من المنتحلين كتابهم وليس هو نبي سلاب كما يقول موسيو (سايوس) نعم قد نرى تشابها بين القرآن والتوراة فى بعض المواضع الا ان سببه ميسور المعرفة ذلك ان محمداً كان يلصق ديانة الاسلام بالديانتين المسيحية واليهودية فالبحث مباح فيما اذا كان مذهبه

صحيحاً أو موضوعا اتخذه ليؤيد به الحقيقة الدينية من حيث هي ولكن لانسلم انكار هذه الحقيقة وحينئذ لاعجب اذا تشابهت تلك الكتب في بعض المواضع خصوصاً اذا لاحظنا أن القرآن جاء ليتممها كما ان (النبي صلى الله عليه وسلم) خاتم الانبياء والمرسلين

والآن نلخص لك مذهب نبي المسلمين في الديانات الثلاث فنقول ان دين الانبياء كان كله واحداً فهم متحدون في المذهب منذ آدم الى محمد وقد نزلت ثلاث كتب سماوية وهي الزبور والتوراة والقرآن. والقرآن بالنسبة الى التوراة كالتوراة بالنسبة الى الزبور أو ان محمداً بالنظر الى عيسى كعيسى بالنظر الى موسى ولكن الامر الذي تهم معرفته هو ان القرآن آخر كتاب سماوي ينزل للناس وصاحبه خاتم الرسل فلا كتاب بعد القرآن ولا نبي بعد محمد (صلعم) ولن تجد بعده لكلمات الله تبديلا اذا تقرر هذا لم يعد هنالك وجه للاستغراب من وجود بعض التشابه بين القرآن والتوراة فمحمد كعيسى قال انه بعث ليتمم رسالة من قبله لا ليبيدها فلم يكن من امره الا بتعاد عمن تقدمه ولذلك كان يصرح على الدوام بانه يعيد على الناس ما نزل على الانبياء من قبله وكان يسمع صوتا من السماء يقول له (انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وعيسى وايوب ويونس وهرون وسليمان وآتينا داود زبورا ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما) وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه أنه لا اله الا أنا

فاعبدون (وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم فاسئلوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون بالبينات والزبر وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون) على ان بعض المتشابهات لا تحتاج الى مثل هـذا التفسير اذ نفس محمد كانت متأثرة بما تأثرت به نفوس الانبياء من بنى اسرائيل وكان يعبد الله الذى عبدوه فلا عجب ان تشابهت الفاظ التضرعات وتجانست أصوات الدعاء

اذن لا يمكن ان ننكر على محمـد (صلعم) فى الدور الاول من حياته كمال ايمانه واخلاص صدقه فاما الايمان فلم ينزعزع مثقال ذرة من قلبـه فى الدور الثانى وما أوتيه من النصر كان من شأنه ان يقويه على الايمان لولا ان الاعتقاد كله قد بلغ منه مبلغاً لامحل للزيادة فيه ولم يكن فيه عيب بل ان مانسبوه اليه من هذا القبيل لايؤثر بشئ على سيرته الطاهرة فما كان يميل الى الزخارف ولم يكن شحيحاً بل كان كما قال أبو الفداء يستدرّ اللبن من نعاجه بنفسه ويجلس على التراب ويرتق ثيابه ونعاله بيده ويلبسها مرقعة مرتقة وكان قنوعا خرج من هذا الباب كما رواه أبو هريرة ولم يشبع من خبز الشعير مرة فى حياته هـذا هو النبى الذى قال عنه المنشدون من النصارى (انه كان منهما يأتى المغيبات فى الحانات) تجرد من الطمع وتمكن من نوال المقام الأعلى فى بلاد العرب ولكنه لم يجنح الى الاستبداد فيها فلم يكن له حاشية ولم يتخذ وزيراً ولا حشما وقد احتقر المال والمعالى وبلغ من السلطان منتهاه ولم يكن له من علامات الامارة والملك سوى قضيب من الفضة مكتوب عليه (محمد رسول الله) ولم يكن فيه عيب الا كما خلق

الله الانسان قال (رونان) خلق الانسان ضعيفاً فلا يقوى على احتمال الرسالة الربانية زمناً طويلا ومن لم تطل مدة رسالته فهو من البررة المعصومين) ومع ذلك فرونان لا يعتقد بصدق رسالة النبي العربي

على انه لو صح انه كان فيه عيوب اكبر مما نسب اليه لما قدح ذلك فى رسالته لان هبة النبوة كمواهب الوحى لا تستلزم حتما خلو من اختص بها فلقد هنى داوود مع بنت صابا ونحن نعلم ان من ذريته المباركة أنبياء بنى اسرائيل وان الله ينزل حكمه آيات تحار فيها الافكار ومهما اجتهدنا فى ادراك كل معنى من معانيه فانا به جاهلون فلقد وعد ملوك بنى اسرائيل ان يرسل المسيح من أصلابهم ورأينا ان عيسى ولد على غير ماعهدوا

على ان محمداً (صلعم) كان يقول عن نفسه انه يخشى العذاب ويسأل الله الغفران وكم من مرة شوهدت علي وجهه علائم الهلع وما به من هول رسالته عند ما كان يتلو علي الناس آيات الفزع الاكبر

هذا ما كان من صدقه وأمانته فى السنين الاولى من بعثته حتى سماه معاصروه بالامين وأما حاله فى بقية مدته بعد ان صار رئيسا سياسياً فالاستدلال عليه ادق وادعى الى طول البحث والتنقيب قال (رينار ددوزى) يكاد ان يكون من المستحيل الجزم بان محمداً كان فى آخر حياته يعتقد بصدق رسالته اما فى الدور الاول فاعتقاده وصدقه لا شك فيهما والادلة كثيرة من الجانبين ووضع المسئلة على هذه الكيفية هو الذى فرق بين الباحثين وانتصر كل حزب من المتطفلين لرأى رجحه تبع اميال وما يشتهى الا ان الناقد المنصف لا يجب عليه ان يرجح قولا على آخر بدون

ملاحظة القرائن التى تتبع الاثنين ولكن الناس كما وصفهم (موسيو مونور) محتاجون الى الايقان والاعتقاد وهم فى احتياجهم هذا يميلون الى من يلقى عليهم المسائل كانها حقيقة ثابتة ويمقتون من ينهاهم عن الاعتقاد بشئ او نفيه مطلقاً بغير ثبت ولا دليل ولست ممن يدعى الترفع عن هذا التقريع غير انى اقول انه بفرض صحة المذهبين وان صدق النبى فى آخر حياته وعدمه سيان فى الوضوح والدليل فلا يزال عندنا سبيل آخر للوصول الى الحقيقة أو القرب منها ألا وهو علم النفس وحركاتها وهذا العلم وان لم يبلغ بعد الدرجة التى تزيل كل شبهة علقت بالافكار لكنه مع ذلك يوصلنا الى الايقان بان من الانبياء من لا يتيسر للباحثين ان يجزموا بشئ فى امرهم كأن يؤكدوا انهم صادقون او انهم جروا فى اعمالهم على ما يخالف الواقع وهم يعلمون كما يفعل السياسيون وما من كاتب ولا باحث يستطيع ان يجزم بان الامبراطور كونستنتان الذى رفعه القسس مكانا علياً فى المعابد وأختصوه بالمواهب الالهية كان صادقا بعد انتصاره فى قنطرة (ميلفيوس) ولكن محمداً قاوم الوثنية بعزم واحد طول الحياة ولم يتردد لحظة واحدة بينها وبين عبادة الواحد الاحد كما فعل الملك الرومانى وايمانه كان حقاً ثابتاً على الدوام لذلك لم تتغير حميته ولم تفتر عزيمته فقد انتهى كما بدأ ولو انه جال بفكره ساعة من زمانه شك فى صدق رسالته لكفى بنصره الدائم مزيلا لهذه الغمة ومؤيداً له فى صحة نبوته وصدق رسالته

وفى الصدق درجات فليتبينها الباحثون وليفقهوها قبل ان يحكموا بالبدع وهم مخطئون ولقد عانى محمد (صلعم) كثيراً مع بنى قومه اذ كانوا منكرين

ولم يأخذهم على غرة منهم بعد ان صاروا مؤمنين نحن لا نصدق بما يقولون بل نرى ان قومه كانوا في استعمال أمانته من المتطرفين ولئن أعجم لهم القول حيناً في مخاطبتهم فذلك لانه يعز وجود من يحب الحق ولا تلجئه الحوادث الى الاعجام طلباً لتقريره في ذهن قوم جاحدين ان الذين ينكرون صدق محمد في آخر حياته لا يستطيعون ان ينكروا عليه انه بقي الى آخر لحظة منها نبيا رسولا شديد التمسك بمذهبه وانه فارق الدنيا مؤقناً باداء رسالته فلقد اتفق مؤرخو العرب طراً على الحوادث التي تخللت ايامه الاخيرة وأورثونا عنهم ما كان من حركاته وسكناته بقول واحد ومعنى لا يتغير مما يبرهن على صدق حديثهم وامانتهم في نقلهم ولولا زيغ المنشدين من النصارى وكثرة تخيلهم لما قالوا (ان محمد قد مات تنهشه الخنازير اذ وجدوه نشوان وليس عنده معين ولا نصير) تلك جريمة لا تغتفر ومما يستغرب له المطالع ان يجد حكاية هذا الموت الفاضح في تاريخ الحرب الصليبية الاولى لمؤلفة (جيبير دى نوجان) وهو معدود من المؤرخين الذين لا يميلون الى التحريف غير انه اتى بهذه الاكذوبة وزاد عليها ان المسلمين كرهوا لحم الخنزير من ذلك التاريخ فلنسدل ثوب النسيان على هذه الاقاصيص المحزنة ولنقرأ كيفية وفاة النبي في كتب المؤرخين الصادقين

لما قربت المنية خارت قواه وخرج الى الحج بمكة في شهر مارس سنة ٦٣٢ ميلادية وهي حجة الوداع وخطب في الناس على منبر المسجد المقدس فقال رب أني أديت رسالتي وبلغت امانتي (اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم

نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً) ثم رجع الى المدينة وأقام ببيت عائشة زوجته المصطفاة برضاء من زوجاته ولما أحس بقرب الاجل ذكر الفقراء فانه لم يرغب طول حياته في المال بل كان كلما جمع اليه شيئا منه انفقه فى الصدقات وكان اعطى عائشة يسيراً لتحفظه فلما حضره المرض امر بانفاقه على المعوزين لساعته وغاب فى سنة ولما أفاق سألها ان كانت انفذت امره فاجابته كلا فامر بالنقود واشار الى العائلات المعوزات فوزع عليهم وقال (الآن استراح قلبي فانني كنت أخشى ان ألاقى ربى وانا املك هذا المال)

وكان في مرضه يخرج كل يوم ليصلي الظهر بالناس وآخر يوم خرج فيه هو الثامن من شهر يونيه سنة ٦٣٢ وكانت مشيته مضطربة فتوكأ على الفضل بن العباس وعلي بن ابى طالب وقصد منبر الخطابه الذى كان يعظ الناس عليه قبل الصلاة وحمد الله واثنى عليه ثم خطب فى المسلمين بصوت رفيع سمعه من كان خارج المسجد فقال (ايها الذين تسمعون قولى ان كنت ضربت أحدكم على ظهره فدونه ظهرى فليضربه وان كنت اسأت سمعة احد فلينتقم من سمعتى وان كنت سلبت أحداً ماله فاليه مالى يقتص منه وهو فى حل من غضبي فان الغل بعيد عن قلبي) ثم نزل من المنبر وصلى بالجماعة ولما أراد الانصراف أمسك به رجل من ازاره وطلب منه ثلاثة دراهم ديناً له فاداها على الفور (قائلا لخزى الدنيا اهون من خزى الآخرة) ثم دعا لمن حارب معه فى أحد وسأل الله لهم الرحمة والغفران وكان مشهد النبي بين المؤمنين فى ذلك اليوم مشهد جلال ووقار والناس يلمحون على وجهه تأثير السم الذى شربه من يد يهودية خيبر وقلوبهم منفطرة من الوجد

عليه ذلك انه لما كان فى واقعة خيبر قدمت اليه يهودية اسمها زينب شاة مشوية اضافت اليها سما فاخذ منه النبي قطعة واحدة بين شفتيه وأحس بانها مسمومة فالقاها . ثم لما حضرته الوفاة بعد حين كان يقول (مازالت تعاودنى اكلة خيبر) وكان أبو بكر نفسه يبكى ويقول للرسول (هلاً افتدينا روحك بارواحنا) ثم اوصله الصحابة الى بيت عائشة واضطجع تعباً مهزولا وصار المرض يشتد عليه فتخلف عن الصلاة بالمسلمين وقيل له قد جاء وقت الظهر فاشار الى ابى بكر ليصلي بالناس فكان من وراء هذه الاشارة خلافة أبى بكر بعد النبي . واخبرت عائشة رضى الله عنها عن حالة الاحتضار فقالت (كانت رأس رسول الله مسندة الى صدرى وبقربه قدر ماء وكان يقوم ليضع فيها يده ويمسح جبينه ويقول (رب اعنى على تحمل سكرات الموت ادن منى ياجبريل رب اغفر لى واجمع بين اصدقائى فى السماء ثم ثقلت رأسه ومال ثانية الى صدرى)

أما مخلفاته فبيت بناه بيده وبضع نياق آلت الى بيت المال لانه عليه الصلاة والسلام قال (نحن معاشر الانبياء لانورث)

الى هنا نقصر القول عن ذات النبي فما أردنا ان نطيل فيها لالنعرف حقيقة تلك النفس المتشبعة بالدين اذ الدين يدعو الى الدين وكان من الوجوب دقة البحث عن اعتقاده (صلى الله عليه وسلم) قبل ان نتتبع دينه كيف انتشر ولا يزال ينتشر فى الوجود